فى النوادب والتعازى والمراثى

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

... ونحن قائلون بعون الله فى النوادب والمراثى ، والتعازى بأبلغ ماوجدناه من الفطن الذكية ، والألفاظ الشجية ، التى ترق القلوب القاسية ، وتذيب الدموع الجامدة ، مع اختلاف النوادب عند نزول المصائب :

فنادبة تثير الحزن من ربضته ، وتبعث الوجد من رقدته ، بصوت كترجيع الطير ، وتقطع أنفاس المآتم ، وتترك صدعا فى القلوب الجلامد ! .

ونادبة تخفض من نشيجها ، وتقصد فى نحيبها ، وتذهب مذهب الصبر والاستسلام ، والثقة بجزيل الثواب ! .

● قال عمرو بن ذر : سألت أبى ، ما بال الناس إذا وعظتهم بكوا ، وإذا وعظهم غيرك لم يبكوا ؟ .

● قال : يا بنى ، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة ! .

● وقال الأصمعى : قلت لأعرابى : ما بال المراثى أشرف أشعاركم ؟ قال : لأننا نقولها ، وقلوبنا محترقة .

● وقال الحكماء : أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء ! .

● وقالوا : كل شىء يبدو صغيرا ثم يعظم إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر ! .

البكاء على الميت

لإبراهيم :

● الشعبى عن إبراهيم قال : لا يكون البكاء إلا من فضل ، فإذا اشتد الحزن ذهب البكاء . وأنشد :

فلئن بكيناه لحق لنا ولئن تركنا ذاك للصبر
فلمثله جرت العيون دماً ولمثله جمدت فلم تجر

الأحنف وباكية !

● مر الأحنف بامرأة تبكي ميتا ، ورجل ينهاها ، فقال له : دعها ، فإنها تندب عهدا قريبا ، وسفراً بعيداً .

النبى وباكيات من الأنصار

● ولما بكت نساء أهل المدينة على قتلى أحد قال النبى ﷺ : « لكن حمزة لاباكية له ذلك اليوم ! » فسمع ذلك أهل المدينة ، فلم يقم لهم مأتم إلى اليوم إلا ابتدأن فيه البكاء على حمزة ! .

وقال النبى ﷺ : « لولا أن يشق على صفية مادفنته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع » .

القول عند الموت

الرسول ﷺ فى قبضه :

● حماد بن سلمة عن ثابت بن مالك قال : كانت فاطمة جالسة عند رسول الله ﷺ ، فتواكدت (١) عليه كرب الموت ، فرفع رأسه وقال : واكرباه ! .

فبكت فاطمة وقالت : واكرباه لكربك ياأبتاه ! قال : لا كربَ على أبيك بعد اليوم ! .

فاطمة رضى الله عنها – مع أبيها عند قبضه

● الرياشى عن عثمان بن عمر عن إسرائيل عن ميسرة بن حبيب ، عن

---

(١) تواكدت : اشتدت .

المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : مارأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله ﷺ من فاطمة .

وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ، ورحب بها وأجلسها فى مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، ورحبت به ، وأخذت بيده فقبلتها . فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه ، فأسر إليها فبكت ، ثم أسرإليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء ، فإذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى إذ هى تضحك ! .

فلما توفى الرسول ﷺ سألتها ؛ فقالت : أَسرَّ إلى فأخبرنى أنه ميت ؛ فبكيت !؛ ثم أَسَرَّ إلَىَّ أنى أول أهل بيته لحوقا به فضحكت ! .

عائشة – رضى الله عنها – مع أبيها فى احتضاره

● القاسم بن محمد عن عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – أنها دخلت على أبيها فى مرضه الذى مات فيه ، فقالت له : ياأبت ، اعهد إلى خاصتك ، وأنفذ رأيك فى عامتك ، وانقل من دار جهازك إلى دار مقامك ؛ وإنك محضور (١) ، ومتصل بقلبى لوعتك ، وأرى تخاذل أطرافك ، وانتقاع لونك (٢) ؛ فإلى الله تعزيتى عنك ، ولديه ثواب حزنى عليك ، أرقأ فلا أَرْقأ (٣) ، وأشكو فلا أُشْكى (٤) .

فرفع رأسه فقال : يابنية ، هذا يوم يحل فيه عن غطائى ، وأعاين جزائى ، إن فرحاً فدائم ، وإن نوحاً فمقيم .

---

(١) أى حضرته الوفاة .
(٢) انتُقِعَ لونه : تغير واختطف لأمر أصابه كالحزن والفزع (لغة فى امتُقِعَ) .
(٣) أحاول تجفيف دمعى فلا يجف ولا يسكن .
(٤) عندما أشكو لا يزيل أحد شكواى بعد فقدك .

إنى اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم ، حيث كان النكوص [1] إضاعة ، والحذر تفريطاً ؛ فشهيدى الله ماكان بقلبى إلا إياه ؛ فتبلغت بصحفتهم [2] ، وتعللت بدرة لقحتهم [3] ، وأقمت صلاى معهم ، لا مختالا أشراً ، ولا مكابرا بطراً ، لم أعد سداً لجوعة ، وتوريةً لعورة ، طوى ممغص تهفو له الأحشاء ، وتجب له الأمعاء ؛ واضطررت إلى ذلك اضطرار الجرض إلى المعيف الآجن [4] ، فإذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم ، ولقحتهم ، وعبدهم ، ورحالهم ، ودثارة [5] ما فوق اتقيت بها أذى البرد ، ودثارة ما تحتى اتقيت بها أذى الأرض . كان حشوهما قطع السعف .

عمر وعائشة رضى الله عنهما مع أبى بكر فى احتضاره

● ودخل عليه عمر فقال : ياخليفة رسول الله ﷺ ، لقد كلفت القوم بعدك تعباً ، ووليتهم نصباً ، فهيهات من شق غُبارَك [6] ! وكيف باللحاق بك ؟! .

وقالت عائشة وأبوها يُغمضُ :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى ، عصمةُ للأرامل

فنظر إليها وقال :

ذلك رسول الله ﷺ . ثم أغمى عليه ، فقالت :

لعمرك ما يغْنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

---

(١) تحملت مسئوليتهم وقتما كان التراجع عن تحمل المسئولية إضاعة للمسلمين .

(٢) تبلغت بصحفتهم : شاركتهم طعامهم ، والبلغة ما يتبلغ به من العيش .

(٣) شاركتهم شربهم مرة بعد أخرى . واللقحة : الناقة الحامل .

(٤) الجَرِض : من جف ريقه ويَغَصُّ به وفى هذه الحالة يرضى بما تعافه النفس من الماء الآجن الذى تغير طعمه ولونه .

(٥) الدثارة : ما يتدثر به الإنسان ويتغطى .

(٦) شق غباره : لحق به وهيهات ذلك .. وبعد على كل من يحاول ومثله قول عمر رضى الله عنه فى أبى بكر بعد أن تولى الخلافة عقبه : لقد أجهد من يأتى بعده .

قالت : فنظر إلى كالغضبان وقال لى :

﴿ وجاءت سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كنت مِنْه تَحِيد ﴾ (١) .

ثم قال : انظروا مُلَاءَتَىَّ فاغسلوهما ، وكفنونى فيهما ؛ فإن الحىَّ أحوج إلى الجديد من الميت ! .

لمعاوية فى النساء

● وقال معاوية ، – وذكر عنده النساء – :

ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى مثلهن .

الوقوف على القبور والقول عند الموت

● لفاطمة على قبر أبيها :

وقفت فاطمة – رضى الله عنها – على قبر أبيها ﷺ فقالت :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها (١) وغاب مُذْغبت عنا الوحى والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا لما نعيت وحالت دونك الكثب (٢)

● حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال : لما فرغنا من دفن رسول الله ﷺ أقبلت على فاطمة فقالت : ياأنس ، كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على وجه رسول الله ﷺ التراب ؟ .

ثم بكت ، ونادت : ياأبتاه ! أجاب رباً دعاه ؛ ياأبتاه ! مِنْ ربِّه ما أدناه ؛

---

(١) ق : ١٩ .

(٢) الوابل : المطر ، وهو حياة الأرض ، وما أشد شوقها إليه حين ينقطع عنها ! .

(٣) الكثب : جمع كثيب ، وهو الكومة من الرمال .. فعندما ندفن يحال بيننا وبين أهلينا ودوينا .

ياأبتاه ! من رَبُّهُ ناداه ، ياأبتاه ! إلى جبريل ننعاه ؛ يا أبتاه ! جنة الفردوس مأواه .

قال : ثم سكتت فما زادت شيئا (١) .

عائشة – رضى الله عنها – على قبر أبى بكر

● ووقفت عائشة على قبر أبى بكر فقالت : نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ؛ فقد كنت للدنيا مذلًّا بإدبارك عنها ، وكنت للآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها .

ولئن كان أجَلَّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك (٢) .

وأعظم المصائب بعده فقدك – إن كتاب الله لَيعِدُ بحسن الصبر فيك ، وحسن العوض منك ، فأنا أتنجزُ (٣) موعود الله ، وأستعيض منك بالاستغفار لك ، فعليك السلام ورحمة الله ، توديع غير قالية (٤) لحياتك ، ولازارية على القضاء فيك ! ثم انصرفت .

لعلى فى فاطمة

● المدائنى قال : لما دفن على بن أبى طالب كرم الله وجهه فاطمة عليها السلام تمثل عند قبرها فقال :

لكل اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ وكلُّ الذى دون الممات قليلُ
وإن افتقادى واحدا بعد واحدٍ دليل على ألا يدوم خليلُ

---

(١) ولا عجب ؛ فقد تربت فى بيت النبوة ، وعرفت ما يقال ، وما لا يقال ! .

(٢) الرُّزء : الفقد والمصيبة .

(٣) لقد بشر الله الصابرين ، وقد صبرت ؛ ولذا أطمع فى إنجاز الوعد .

(٤) القالى : الكاره ، وفى القرآن : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ ، فهى تودعه وداع من كان يحب حياته ، ومع هذا فهى راضية بقضاء الله غير زارية على القضاء ! وهذا هو الصبر والإيمان بقضاء الله !؛ أليست أم المؤمنين ، والأسوة الحسنة ؟! .

امرأة الحسن على قبره

● لما مات الحسن بن على عليهما السلام ضربت امرأته فسطاطا [1] على قبره ، وأقامت حَوْلاً ، ثم انصرفت إلى بيتها ، فسمعت قائلا يقول :

أدركوا ما طلبوا .

فأجابه مجيب : بل ملُّوا فانصرفوا .

نائلة على قبر عثمان

● ابن الكلبى قال : وقفت نائلة بنت الفرافصة الكلبية على قبر عثمان فترحمت عليه ثم قالت :

ومالى لا أبكى وتبكى صحابتى وقد ذهبت عنا فضول أبى عمرو

ثم انصرفت إلى منزلها ، فقالت :

إنى رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوبُ ، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان فى قلبى ! ، فدعت بفهر [2] فهشمت فاها ، وقالت : والله لا قَعَدَ منى رجل مقعد عثمان أبداً [3] ! .

لأعرابية فى أبيها

● وقفت أعرابية على قبر أبيها فقالت : يا أبت ، إن فى الله تبارك وتعالى مِنْ فقدك عوضاً ، وفى رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة .

ثم قالت : اللهم نزل بك عبدك مقفراً من الزاد [4] مُخْشَوْشِن المهاد [5]

---

(١) الفسطاط : الخيمة .

(٢) فهر : حجر صغير .

(٣) لن أكون لغيره زوجة .

(٤) لا زاد معه .

(٥) مهاده وسريره خشن ، فهو ينام على تراب .

غنيا عما فى أيدى العباد [١] ، فقيرا إلى مافى يديك ياجواد [٢] ، وأنت أىْ ربٍّ خير من نزل به المؤملون [٣] ، واستغنى بفضله المقلون [٤] وولج [٥] فى سعة رحمته المذنبون .

اللهم فليكن قِرى [٦] عبدك منك رحمتك ، ومهاده جنتك ... .

ثم انصرفت ! .

لأعرابية فى رثاء ابنها

● قال عبد الرحمن بن عمر : دخلت على امرأة من نجد بأعلى الأرض فى خباء لها ، وبين يديها بُنى لها قد نزل به الموت ، فقامت إليه ... فأغمضته وعصبته ، وسجته [٧] ، وقالت : يابن أخى ، قلت : ماتشائين ؟ .

قالت : ما أحق من ألبس النعمة ، وأطيلت به النَّظِرة ، أن لا يدع التوثق من نفسه قبل حل عقدته ، والحلول بعفو ربه ، والمحالة بينه وبين نفسه !؛ قال : وما يقطر من عينها دمعة صبراً واحتساباً .

ثم نظرت إليه فقالت :

والله ماكان ماله لبطنه ، ولا أمره لعرسه ، ثم أنشدت :

رحيب الذراع بالتى لا تشينه وإن كانت الفحشاء بها ذرعاً

---

(١) فلم يعد فى حاجة إلى ما يحتاج إليه أهل الدنيا من مال ومتاع . .
(٢) من رحمة ومغفرة ورضوان .
(٣) الذين علقوا آمالهم على رحمتك وكرمك ومغفرتك .
(٤) المقل : قليل الفضل .
(٥) ولج : دخل .
(٦) القِرى : ما يقدم للضيف .
(٧) سجته : غطته بثوب ونحوه .

لجارية على قبر أبيها

● سمع الحسن من جارية واقفة على قبر أبيها وهى تقول :

يا أبت ، مثل يومك لم أره ! قال : الذى – والله – لم يرمثل يومه أبوك ! (١) .

أبيات قيل : إنها لأبى نواس

● وجد على قبر جارية إلى جنب قبر أبى نواس ثلاثة أبيات ؛ فقيل : إنها من قول أبى نواس ، وهى :

أقـولُ لقبر زرتـه متلثماً (٢) سقى الله بَرد العفو صاحبة القبر
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى وشمس الضحى بين الصفائح(٣) والعفر
عجبت لعينٍ بعدها ملت البكا وقلبٍ عليها يرتجى راحة الصـبر

أعرابية مات ابنها

● قيل لأعرابية مات ابنها . ما أحسن عزاءك ؟ قالت : إن فقدى إياه آمننى كل فقد سواه ، وإن مصيبتى به هونت على المصائب بعده ! .

ثم أنشأت تقول :

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أُحاذر
كنت السواد لناظرى فعمى عليك الناظرُ
ليت المنازل والديـا ر حفائـر ومقابـر
إنى وغيرى لامحالـة حيث صرت لصائر (٤)

---

(١) نعم فأيام الدنيا متشابهة ، فى سرائها وضرائها ، أما هذا اليوم الذى يسلم فيه الإنسان روحه ، ويفارق دنياه ، فإنه يرى ما ليس له مثيل من قبل فى دنياه ... لقد انتقل من عالم إلى عالم .

(٢) متلثما : يقبل ذا الجدار وذا الجدار .

(٣) بين الصفائح والعفر بين الأحجار والتراب .

(٤) كلنا للموت صائرون .

● وقالت أعرابية ترثى ولدها :

يافرحة القلب والأحشاء والكبد ... ياليت أمك لم تحبل ولم تلد
لما رأيتك قد أدرجت فى كفن ... مطيبا للمنايا آخر الأبد
أيقنت بعدك أنى غير باقيـة ... وكيف يبقى ذراع زال عن عَضُدِ

● وقالت أعرابية :

أبنى غيبك المحل الملحـدُ ... إما بعدت فأين من لا يبعد
أنت الذى فى كل ممسى ليلةٍ ... تبلى وحزنك فى الحشا يتجدد

● وقالت فيه :

لئن كنت لى لهوا لعين وقرة ... لقد صرت سقما للقلوب الصحائح
وهون حزنى أن يومك مدركى ... وأنى غدا من أهل تلك الضرائح (١)

● أبو عبيد البجلى قال : وقفت أعرابية على قبر ابن لها يقال له : عامر ، :

● فقالت :

أقمـت أبكيـه على قـبره ... من لى من بعدك يا عـامـر
تركتنى فى الدار لى وحشـةٌ ... قد ذَلَّ من ليـس له ناصر

وقالت فيه :

هو الصبر والتسليم لله والرضا ... إذا نزلت بى خطةٌ لا أشاؤها
إذا نحن أبنا (٢) سالمين بأنفس ... كرام رجت أمراً فخاب رجاؤها
فأنفسنـا خير الغنيمـة إنها ... تئوب ويبقى ماؤها وحياؤها
ولا بر إلا مادون ما بر عامر ... ولكن نفسا لا يدوم بقاؤها
هو ابنى أمسى أجرُهُ لى وعزنى ... على نفسه رب إليه ولاؤها
فإن أحتسب أوجر (٣) وإن أبكه أكن ... كباكية لم يحى ميتا بكاؤها

---

(١) الضرائح : جمع ضريح . القبر .
(٢) أبنا : عدنا ورجعنا وفعله آب .
(٣) ينالنى الأجر لأننى احتسبته عند الله .

لهذيلية فى رثاء إخوة وابن

● الشيبانى قال : كانت امرأة من هذيل ، وكان لها عشرة إخوة وعشرة أعمام ، فهلكوا جميعا فى الطاعون ، وكانت بكراً لم تتزوج فخطبها ابن عم لها فتزوجها ، فلم تلبث أن اشتملت [1] على غلام فولدته ، فنبت نباتا كأنما يمد بناصيته [2] وبلغ ، فزوجته وأخذت فى جهازه ، حتى إذا لم يبق إلا البناء [3] ، أتاه أجله ، فلم تشق لها جيبا ، ولم تدمع لها عين ؛ فلما فرغوا من جهازه ، دعيت لتوديعه ، فأكبت عليه ساعة ، ثم رفعت رأسها ، ونظرت إليه وقالت :

ألا تلك المسرة لا تدوم ولا يبقى على الدهر النعيم
ولا يبقى على الحدثان [4] غفر بشاهقة [5] له أم رؤومُ

ثم أكبت عليه أخرى ، فلم تقطع نحيبها حتى فاضت نفسها فدفنا جميعا .

لشيبانية فى حزنها على أهلها

● خليفة بن خياط قال : ما رأيت أشد كمداً من امرأة من بنى شيبان ، قتل ابنها ، وأبوها ، وزوجها وأمها ، وعمتها ، وخالتها مع الضحاك الحرورى ، فما رأيتها قط ضاحكة ، ولا متبسمة حتى فارقت الدنيا ، وقالت ترثيهم :

---

(١) اشتملت : حملت .
(٢) كان سريع النماء والطول .
(٣) البناء على الزوجة الدخول بها .
(٤) يقال نزلت به حوادث الدهر وأحداثه ، ومن ينجو من الحَدَثان ؟ .
(٥) ليس ينجو أحد وإن كان بمكان عالٍ شاهق ترعاه أم حانية وتحوطه وتحميه ، ويضرب المثل بالغُفْر فى البعد والمنعة والحصانة فيقال : أبعد من معقل الغُفر ، بل من مطلع الغَفر ، وهما ولد الأَرْوِيَّه ومنزل من منازل القمر .

من لقلب شفة الحزن ولنفس مالها سكن
ظعن (١) الأبرار فانقلبوا خيرهم من معشر ظعنوا
صبروا عند السيوف فلم ينكلوا عنها ولا جبنوا

رثاء أخت النضر له

قال ابن إسحق – صاحب المغازى – لما نزل رسول الله ﷺ الصفراء – وقال ابن هشام الأثيل – أمر على بن أبى طالب بضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف صبراً (٢) ، بين يدى الرسول ﷺ . فقالت أخته : قتيلة بنت الحارث ترثيه (٣) :

يا راكباً إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق (٤)
بلغ به ميتاً فإن تحيةً ما إن تزال بها الركائب تخفق (٥)

---

(١) الظعن : السفر والارتحال .

(٢) كل ذى روح يوثق حين يقتل فقد قتل صبرًا .

(٣) هى من الشعراء المخضرمين . وكان النضر أخوها يؤذى رسول الله ﷺ والمسلمين ويقول : يأتيكم بأخبار عاد وثمود ، وأنا آتيكم بأخبار الأكاسرة والقياصرة ، فلما قتل قالت هذا الأبيات ترثيه – وقيل فى شعرها : أكرم شعر موتور ، وأعفه ، وأكفه ، وأحلمه .

(٤) الأثيل : موضع فيه قبر النضر ، والمظنة موضع الظن . تريد أن الأثيل مظنة أن تصل إليه صبيحة ليلة خامسة ، وقولها : وأنت موفق : أى حينما لا تضل طريقك . والمعنى : يا راكبا ، إن الأثيل يظن أن تبلغه فى صبح الليلة الخامسة إن وفقت إلى الطريق ولم تزغ عنه .

(٥) ما –إن – تزال : إن زائدة للتوكيد . وتخفق : تتحرك .

منِّى إليك وعبرةً مسفوحةً ... حادت بواكفها وأخرى تخنق (١)
هل يسمعنى النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق (٢)
أمحمد يا خير ضنء كريمةٍ ... من قومه والفحل فحل معرق (٣)
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق (٤)
فالنضر أقرب من أسرت قرابةً ... وأحقهم إن كان عتقا يعتق (٥)
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق (٦)
صبرا يقاد إلى المنية متعبا ... رسف المقيد وهو عانٍ موثق (٧)

عمر بن الخطاب والخنساء فى أخويها

● الأصمعى قال : نظر عمر بن الخطاب إلى خنساء وبها ندوب (٨) فى وجهها فقال : ماهذه الندوب ياخنساء ؟! قالت : من طول البكاء على أخوى ! ، قال لها : أخواك فى النار ! قالت : ذلك أطول لحزنى عليهما ، إنما كنت أشفق عليهما من القتل ، وأنا اليوم أبكى لهما من النار ، وأنشدت تقول :

---

(١) مسفوحة : مصبوبة . ومعنى البيتين : إذا وصلت إلى هذا المكان فبلغ ساكنه تحية لا تزال الركائب تتحرك بها منى إليه وبلغه عبرة مصبوبة ، وأخرى بالحلق تخنقه .

(٢) إنها تتساءل فى حسرة .. هل يسمعها أخوها ، ولكنها سرعان ما تقول : كيف يسمع من لا ينطق ؟! وإن كانت السنة الشريفة أخبرتنا أن الميت يسمع وقع النعال .

(٣) الضَّنْء الولد . والمعرق : من له عرق فى الكرم . والمعنى : يا محمد ، إن التى ولدتك كريمة قومها ، والذى ولدك سيد عريق فى الكرم ، فأنت خلاصة شريفين .

(٤) المعنى : وإذا كنت كذلك فما الذى يضرك لو مننت على أخى وأطلقته وليس هذا عيبا عليك إذ قد يعفو الفتى مع انطوائه على الغيظ والحنق .

(٥) إن النضر أقرب الأسراء الذين أسرتهم إليك وأحقهم بالعتق إن وقع فكاك أو عتق .

(٦) تنوشه : تتناوله . واللام فى — لله — للتعجب . والمعنى : لم يقتله أحد غير بنى أبيه فعجبا من أرحام تتقطع هناك .

(٧) إنه يقاد إلى الموت متعبا فى قيوده .

(٨) الندوب ما تتركه الدموع وغيرها فى الوجه من آثار وكأنما هى مجارٍ للدموع .

وقائلة – والنفس قد فات خطوها لتدركه – يالهف نفسى على صخر
ألا ثكلت (١) أم الذين غدوا به إلى القبر ماذا يحملون إلى القبر ؟!

عائشة والخنساء فى صدار (٢) كانت تلبسه :

دخلت خنساء على عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها وعليها صدار من شعر قد استشعرته إلى جلدها ؛ فقالت لها : ماهذا ياخنساء ؟ فو الله لقد توفى رسول الله ﷺ فمالبسته ! .

قالت : إن له معنى دعانى إلى لباسه ، وذلك أن أبى زوجنى سيد قومه ، وكان رجلا متلافاً ، فأسرف فى ماله حتى أنفده ، ثم رجع فى مالى فأنفده أيضا ، ثم التفت إلى فقال : إلى أين ياخنساء ؟! قلت : إلى أخى صخر ، قالت : فأتيناه فقسم ماله شطرين ، ثم خيرنا فى أحسن الشطرين ، فرجعنا من عنده ، فلم يزل زوجى حتى أذهب جميعه ، ثم التفت إلى فقال لى : إلى أين ياخنساء ؟ فقلت إلى أخى صخر .. ! .

قالت : فرحلنا إليه ، ثم قسم ماله شطرين ، وخيرنا فى أفضل الشطرين ، فقالت له زوجته : أما ترضى أن تشاطرهم مالك حتى تخيرهم بين الشطرين ؟ فقال :

والله لاأمنحها شرارها فلو هلكت قددت خمارها
واتخذت من شعر صدارها وهى حصان قد كفتنى عارها

فآليت ألا يفارق الصدار جسدى مابقيت ! .

● من رثت زوجها :

قالت أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين – رضى الله عنها – ترثى زوجها

---

(١) الثكلى هى من فقدت بنيها .

(٢) الصِّدار : قميص يغشى الصدر بلا كمين ، واستشعرته لبسته بحيث يلى الجسد ، والشعار ما يلبس تحت الدثار فالجلباب دثار والقميص شعار .

الزبير بن العوام وكان قتله عمرو بن جرموز المجاشعى بوادى السباع وهو منصرف من وقعه الجمل [وتروى هذه الأبيات لزوجته التى تزوجها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه] :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة ... يوم الهياج وكان غير معرد (١)
يا عمرو لو نبهته لو جدته ... لا طائشا رعش الجنان ولا اليد
ثكلتك أمك إن قتلت لمسلما ... حلت عليك عقوبة المتعمد

● لبانة زوجة الأمين ترثيه :

الهلالى قال : تزوج محمد بن هارون الرشيد لبانة بنت على بن ريطة ، وكانت من أجمل النساء ، فقتل محمد عنها ولم يبن بها ، فقالت ترثيه :

أبكيك لا للنعيم والأنس ... بل للمعالى والرمح والفرس
يا فارساً بالعراء مطرحاً ... خانته قواده مع الحرس
أبكى على سيد فجعت به ... أرملنى قبل ليلة العرس
أم من لبر أم من لعائدة ... أم من لذكر الإله فى الغلس (٢)
من للحروب التى تكون لها ... إن أضرمت نارها بلا قبس

● وقالت أعرابية ترثى زوجها (٣) :

كنا كغصنين فى جرثومة سمقا ... حينا بأحسن مايسمو له الشجر (٤)

---

(١) البُهمة : الشجاع الذى يستبهم مأتاه على أقرانه فيحارون كيف يأتونه ، ومن أين ينالونه ويتمكنون منه ؟! وعرَّد عنه : إذا انحرف وبعد : فقد غدر به على مقربة منه دون أن ينبه .

(٢) الغلس : ظلمة آخر الليل .

(٣) هذه الأبيات منسوبة فى ديوان الحماسة لصفية الباهلية ترثى أخاها (الطبعة الثانية ١٩١٣م) .

(٤) الجرثومة : الأصل ، والتراب المتجمع فى أصول الشجر . وسمقا : طالا ، ويسمو : يعلو ، والمعنى : كنا كغصنين طالا وتشعبا من أصل واحد متكافئين فى رفعة الشرف ، ودمنا زمانا على أحسن ما يدوم به الفرعان فى أصلهما . وقد جاء البيت فى العقد :

..... بثقا ... حينا على خير ما ينمى به الشجر

حتى إذا قيل قد طالت فروعهما ... وطاب فيئآهما واستنظر الثمر (١)
أخنى على واحدى ريب الزمان وما ... يبقى الزمان على شيء ولايذر (٢)
كنا كأنجم ليل بينها قمـــر ... يجلو الدجى فهوى من دونها القمر (٣)

● الأصمعى وجارية على قبر زوجها :

● الأصمعى قال : دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لى ، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال ، وعليها من الحلى والحلل مالم أرمثله وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى ؛ فالتفت إلى صاحبى فقلت : هل رأيت أعجب من هذا ؟ قال : لا والله ولا أحسبنى أراه ! .

ثم قلت لها : يا هذه إنى أراك حزينة وما عليك زى الحزن .

فأنشأت تقول :

فإن تسألانى فيم حزنى فإننى ... رهينـة هذا القبر يافتيـــان
وإنى لأ ستحييه والترب بيننا ... كما كنت أستحييه حين يرانى
أهابك إجلالا وإن كنت فى الثرى (٤) ... مخافة يوم أن يسوءَك شـــانى

---

(١) الفيء : الظل ، واستنظر : انتظر ، وفى رواية العقد : وطال قنواهما واستنظر الثمر والقنو : العذق وهو من النخل كالعنقود من العنب .

(٢) أخنى : أهلك ، وريب الزمان : مصيبته ، ولا يذر : ولا يدع . ومعنى البيتين : أننا لما بلغنا الكمال ، وطاب منشؤنا ، وكنا كفرعى الشجرة التى طاب ظلها ، واستنظر ثمار أغصانها أحدث حدثان الدهر أحداثا فاجعة فأهلكت – أخى – أو زوجى – على رواية العقد – الواحد . ولا عجب ؛ فإن هذه أحوال الدهر الذى لا يدوم على حال .

(٣) كنا فى الاجتماع مع الأهلين كالأنجم التى تبدو فى الليل ، وهو بيننا كالقمر الذى يكشف الظلمة ، فسقط من وسطها . أى غاب عن أعيننا .

(٤) الثرى : التراب ، وهى ما زالت تعمل حسابه ، ويعتريها الحياء منه ميتا كما كانت معه حيا ، فهى تهابه إجلالا .

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول :

يا صاحب القبر يامن كان ينعم بى ... بالاً ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت تبرك فى حلى وفى حلل ... كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه ... أن قد تسر به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عبرى مولهة ... عجيبة الزى تبكى بين أموات (١)

وقال : رأيت بصحراء جارية قد ألصقت خدها بقبر وهى تبكى وتقول :

خدى يقيك خشونة اللحد ... وقليلة لك سيدى خدى
ياساكن القبر الذى بوفاته ... عميت على مسالك الرشد (٢)
آسمع أبثك علتى ولعلنى ... أطفى بذلك حرقة الوجد (٣)

● من رثى جاريته :

كان لمعلى الطائى جارية يقال لها وصف ، وكانت أديبة شاعرة ، فأخبرنى محمد بن وضاح ، قال : أدركت معلى الطائى بمصر ، وأعطى بجاريته « وصف » أربعة آلاف دينار ، فباعها ، فلما دخل عليها قالت له : بعتنى يامعلى ؟! قال : نعم . قالت : والله لو ملكت منك مثل ماتملك منى مابعتك بالدنيا ومافيها ! فرد الدنانير ، واستقال (٤) صاحبه ، فأصيب بها إلى ثمانية أيام ، فقال يرثيها .

ياموت كيف سلبتنى وصفا ... قدمتها وتركتنى خلفا
هلا ذهبت بنا معا فلقد ... ظفرت يداك فسمتنى خَسْفَا (٥)
وأخذت شق النفس من بدنى ... فقبرته وتركت لى النصفا

---

(١) عبرى : باكية تسيل عبراتها ، وموله : ذهب الحزن بعقلها .
(٢) أصبحت حائرة بعدك ، فقد كنت ترشدنى ، وتهدينى .
(٣) الوَجْدُ : الحزن .
(٤) استقال صاحبه : طلب منه أن يعفيه من إتمام الصفقه ويرد عليه جاريته لأنه رجع فى البيع
(٥) سمتنى خسفا : أذقتنى الذل بعدها .

فعليك بالباقى بلا أجل ... فالموت بعد وفاتها أعفى
ياموت ما أبقيت لى أحداً ... لما رفعت إلى البلى وصفا
هلا رحمت شباب غانية ... ريا العظام وشعرها الوحفا (١)
ورحمت عينى ظبية جعلت ... بين الرياض تناظر الخشفا (٢)
تغض إذا انتصبت فرائصه ... وتظل ترعاه إذا أغفى (٣)
فإذا مشى اختلفت قوائمه ... وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متحيرا فى المشى مرتعشا ... يخطو فيضرب ظلفه الظلفا
فكأنها وصف إذا جعلت ... نحوى تحير محاجرا وطفا (٤)
ياموت أنت كذا لكل أخى ... إلف يصون ببره الإلفا
خليتنى فرداً وبنت بها ... ما كنت قبلك حاملا وكفا(٥)
فتركتها بالرغم فى جدث ... للريح تنسف تربه نسفا
دون المقطم لا ألبسها ... من زينةٍ قرطا ولا شنفا (٦)
أسكنتها فى قعر مظلمة ... بيتا يصافح تربه السقفا
بيتا إذا مازاره أحد ... عصفت به أيدى البلى عصفا
لا نلتقى أبدا معاينة ... حتى نقوم لربنا صفا
لبست ثياب الحتف جارية ... قد كنت ألبس دونها الحتفا(٧)
فكأنها والنفس زاهقة ... غصن من الريحان قد جفا
ياقبر أبق على محاسنها ... فلقد حويت البر والظرفا

---

(١) الغانية : التى استغنت بجمالها عن الزينة ، وريا العظام : طرية ناعمة وشعرها الوحف : الاسود الفاحم الكثيف .

(٢) الخشف : ولد الغزال يطلق على الذكر والأنثى .

(٣) الفرائص : جمع فريصة وهى لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع فإذا ما رأت وليدها قد نام تظل ساهرة عليه ترعاه .

(٤) المحجر من العين ما دار بها . وطفاء كثيرة شعر الحاجبين .

(٥) بنت بها : بعدت بها عنى - وما كنت قبلك حاملا وكفا - أى حزنا ودموعا تكف وتسيل .

(٦) الشنف : ما علق فى الأذن ، أو أعلاها من الحلى .

(٧) الحتف : الموت ، وجارية : شابة .

● مروان بن محمد وجارية له :

● لما هزم مروان بن محمد وخرج نحو مصر ، كتب إلى جارية له خلفها بالرملة :

ومازال يدعونى إلى الصد مأرى ... فآبى ويثنينى الذى لك فى صدرى
وكان عزيزا أن تبينى وبيننا ... حجاب فقد أمسيت منك على عشر
وأنكاهما للقلب – والله – فاعلمى ... إذا ازددت مثليها فصرت على شهر
وأعظم من هذين – والله – أننى ... أخاف بألا نلتقى آخر الدهر
سأبكيك لا مستبقيا فيض عبرة ... ولا طالبا بالصبر عاقبة الصبر

● وقال حبيب الطائى يرثى جارية أصيب بها :

جفوف البلى أسرعت فى الغصن الرطب ... وخطب الردى والموت أبرحت من خطب
لقد شرقت فى الشرق بالموت غادة ... تبدلت منها غربة الدار فى القرب
وألبسنى ثوبا من الحزن والأسى ... هلال عليه نسج ثوب من الترب
وكنت أُرَجِّى القرب وهى بعيدة ... فقد نقلت بعدى عن البعد والقرب
أقول وقد قالوا استراحت لموتها ... من الكرب روح الموت شر من الكرب
لها منزل تحت الثرى وعهدتها ... لها منزل بين الجوانح والقلب

● وقال يرثيها :

ألم ترنى خليت نفسى وشأنها ... ولم أحفل الدنيا ولا حدثانها (١)
لقد خوفتنى النائبات صروفها ... ولو أمنتنى ما قبلت أمانها (٢)
وكيف على نار الليالى معرس ... إذا كان شيب العارضين دخانها
أصبت بخود سوف أغبر بعدها ... حليف أسى أبكى زماناً زمانها (٣)

---

(١) لم أحفل : لم اهتم . وحدثانها : أحداثها .
(٢) صروفها : نكباتها ، وهما لم يعد يأمنها .
(٣) الخود : الفتاة الناعمة حسنة المظهر والمخبر . ويقول إنه سيظل بعدها يحالف الحزن .

عنان من اللذات قد كان فى يدى ... فلما قضى الإلف استردت عنانها (١)
منحت المها هجرى فلا محسناتها ... أريد ولا يهوى فؤادى حسانها (٢)
يقولون : هل يبكى الفتى لخريدة ... إذا ماأراد اعتاض عشراً مكانها (٣)
وهل يستعيض المرء من خمس كفه ... ولو صاغ من حر اللجين بنانها (٤)

● وقال أعرابى يرثى امرأته :

فو الله ما أدرى إذا الليل جننى ... وذكرنيها أينا هو أوجع (٥)
أمنفصل عنه ثرى ؟ أم كريمة ... أم العاشق النائى به كل مضجع ؟ (٦)

● وقال محمود الوراق يرثى جاريته نشو :

ومنتصح يردد ذكر نشو ... على عمد ليبعث لى آكتئابا
أقول: وعد ماكانت تساوى ... سيحسب ذاك من خلق الحسابا
عطيته إذا أعطى سروراً ... وإن أخذ الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أعم نفعا ... وأحسن فى عواقبها إيابا
أنعمته التى أهدت سروراً ... أم الأخرى التى أهدت ثوابا ؟
بل الأخرى وإن نزلت بحزن ... أحق بشكر من صبر احتسابا!

---

(١) يتحسر على ما كان يتاح له من لذات يمسك بعنانها عندما كانت تعايشه فلما ماتت استردت عنانها – والعنان ما يمسك به الفارس من فرسه .

(٢) يقصد النساء الجميلات ، وقد كانوا يشبهون المرأة بالمهاة وهى بقر الوحش لسعة عينيها – فلقد أعرض عن جمالهن وهجرهن بفراقها .

(٣) الخريدة : البكر الحيية الطويلة السكوت ، واللؤلؤة لم تثقب ، ويقول : إن فراغها لا يملؤه غيرها ولو كن عشرا .

(٤) هل يمكن أن تسد أى أصابع مكان أصابع اليد ، ولوصيغت من فضة .. إن غيرها لا يعوضه عنها مهما بلغن فى الجمال .

(٥) جن عليه الليل : أظلم .

(٦) نبابه المضجع : كرهه ، فلا ينام .

● محب وجارية له ماتت :

أبو جعفر البغدادى قال : كان لنا جار ، وكانت له جارية جميلة ، وكان شديد المحبة لها ، فماتت ، فوجد [1] عليها وجداً شديدا ، فبينما هو ذات ليلة نائم ، إذ أتته الجارية فى نومه فأنشدته هذه الأبيات :

جاءت تزور وسادى بعد مادفنت ... فى النوم ألثم خداً زانه الجيد
فقلت : قرة عينى [2] قد نعيت لنا ... فكيف ذا وطريق القبر مسدود ؟!
قالت : هناك عظامى فيه ملحدة ... تنهش منها هوام الأرض والدود
وهذه النفس قد جاءتك زائرة ... فاقبل زيارة من فى القبر ملحود

فانتبه وقد حفظها ، وكان يحدث الناس بذلك وينشرهم . فما بقى بعدها إلا أياما يسيرة حتى لحق بها .

● رثاء ابنة لأحد بنى حميد

قال البحترى يعزى أبا نهشل [3] محمد بن حميد الطوسى عن ابنته :

ظلم الدهر فيكم وأساء ... فعزاء بنى حميد عزاء
أنفس ماتكاد تفقد فقداً ... وصدور ماتبرح البرحاء

---

(١) حزن عليها حزناً شديداً .

(٢) يا قُرةَ عينى .

(٣) أبو نهشل محمد بن حميد ، وأخواه أبو نصر محمد ، وأبو عبد الله محمد هم : بنو حميد ابن عبد الحميد الطائى الطوسى القائد الذى قتل فى حرب بابك سنة ٢١٤ وقد ترجم المرزبانى لهم فى معجم الشعراء ، وقال : إنهم شعراء أدباء ، وقد رثى أبو تمام أباهم عند مصرعه ، وهذه القصيدة يرجع تاريخها إلى سنة ٢٣٠ هـ ديوان البحترى جـ ١ .

أصبح السيف داءكم وهو الد ... اء الذى مايزال يعيى الدواء (١)
وانتحى القتل فيكم فبكينا ... بدماء الدموع (٢) تلك الدماء
ياأباالقاسم المقسم فى النجـ ... ـدة والجود والندى أجزاء (٣)
والهزبر الذى إذا دارت الحر ... ب به صرف الردى كيف شاء (٤)
الأسى واجب على الحر ، إما ... نيةً حرةً وإما رياء (٥)
وسفاه أن يجزع الحر مما ... كان حتما على العباد قضاء (٦)
أنبكى من لاينازل بالسيـ ... ـف مشيحا ولا يهز اللواء ؟ (٧)
والفتى من رأى القبور لما طا ... ف به من بناته أكفاء (٨)
لسن من زينة الحياة كعد اللـ ... ـه منها الأموال والأبناء (٩)
قد ولدن الأعداء قدما وورثـ ... ن التلاد الأقاصى البعداء(١٠)
لم يئد تربهن « قيس تميم » ... عيلة بل حمية وإباء (١١)

---

(١) يقف الدواء والطب عاجزا أمام السيف .

(٢) بدموع تشبه الدماء عبرنا عن حزننا على قتلاكم .

(٣) الندى : العطاء ، وقد وصفه بالنجدة ، والجود ، والندى .

(٤) الهزبر : الأسد ، وهو هنا شجاع عندما تدور رحى الحرب ، لا يهاب الموت بل يوجه الموت لكل من حوله ممن يقاتلهم كيف شاء .

(٥) الأسَى بضم الهمزة وكسرها : جمع أُسوة أى القُدْوة وما يأتسى به الحزين .

(٦) من السفه أن نجزع ونحزن مما هو لا مفر من وقوعه .

(٧) لا يستحق البكاء فى نظر الشاعر من لا ينازل الأبطال ، ولا يحمى اللواء فى ميادين القتال يعنى بذلك : النساء ؛ فهو يعجب ممن يبكيهن . والمشيح : الجاد الحذر والمانع لما وراء ظهره .

(٨) الفتى الحق من يرى أن القبور هى المناسبة لما طاف به من بناته .

(٩) يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى عندما عد زينة الحياة الدنيا قال : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : ٤٦] وليس من هذه الزينة البنات .

(١٠) التِّلاد بالفتح : المال القديم الأصلى الذى ولد عندك وهو ضد الطارف ويقصد أنهن يتزوجن فينسب أبناؤهن إلى قبائل الأزواج وربما كانت معادية لقبيلة الأم فينتمى الأبناء لتلك القبيلة المعادية كما قال شاعر ممائل :

بنونا بنو أبنائنا ، وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وأيضا ينتقل ميراث البنت معها إلى زوجها وأولادها .

(١١) العيلة : مصدر عال : افتقر . وقيس تميم : هو قيس بن عاصم المنقرى ينتسب إلى زيد مناة ابن تميم ، وقد كان يئد كل بنت تولد له ويبرر الشاعر ذلك بأنه لم يكن الدافع من وراء ذلك الوأد الفقر وإنما كان الإباء والحمية وخوف العار والفضيحة وتربهن : أى مثلهن .

وتغشى فى مهلهل الذل فيهـــ ـن وقد أعطى الأديم حباء (١)
وشقيق بن فاتك حذر العا ر عليهن فارق الدهناء (٢)
وعلى غيرهن أحزن يعقو ب وقد جاءه بنوه عشاء (٣)
وشعيب من أجلهن رأى الوحـ ـدة ضعفا فاستأجر الأنبياء (٤)
واستزل الشيطان آدم فى الجـ ـنة لما أغرى به « حواء »
وتلفت إلى القبائل فانظر أمهات يُنسبن أم آباء ؟!
ولعمرى ما العجز عندى إلا أن تبيت الرجال تبكى النساء !!

للإسكندر يعزى أمه عن فقده

● ولما حضرت الإسكندر الوفاة كتب إلى أمه :

أن اصنعى طعاما يحضره الناس ، ثم تقدمى إليهم :

ألا يأكل منه محزون ، ففعلت : فلم يبسط أحد إليه يده ، فقالت : مالكم لا تأكلون ؟ فقالوا : إنك تقدمت إلينا أن لا يأكل منه محزون ، وليس منا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب ! .

فقالت : مات والله ابنى ! .

ومـــــا أوصى إلى بهذا إلا ليعزينـــــى به !

---

(١) مهلهل بن ربيعة التغلبى نزل بقبيلة يقال لها : « جنب » فزوج إحدى بناته فيها لمعاوية ابن عمر من ولد هذه القبيلة . وقدم لها مهرها جلودًا . فقال :

زوجها فقدها الأراقم من جنب وكان الحبـــاء من أدم

والأديم : الجلد . والحباء : العطاء . ويقصد أن أباها تغشاه الذل عندما أعطى مهر ابنته جلدًا .

(٢) الدهناء : من ديار بنى تميم معروفة ، وهى سبعة أجبُل من الرمل فى عرضها بين كل جبلين شقيقة ، إذا أخصبت ربعت العرب جميعا لسعتها . ويقصد أن شقيق بن فاتك فارق موطنه خوف العار على بناته .

(٣) يشير إلى قصة يوسف عليه السلام وحزن أبيه عليه لما عاد إخوته إلى أبيهم بعد أن ألقوا أخاهم فى الجب . وأن هذا الحزن لم يكن عليهن ! .

(٤) يشير إلى قصة موسى عليه السلام مع ابنتى شعيب عندما سقاهما من ماء مدين وقد وردت قصة ذلك فى القرآن الكريم سورة القصص [الآيات : ٢٣ - ٢٨] .